نبئ الله نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥] عندما تقرأ اللام فى ﴿وَلَقَدْ﴾ تعرف أنه قسم. و ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ معناها قول الحق تبارك وتعالى: وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً. إذن فاللام للقسم وباقى الآية جواب القسم فى أن الحق قد أرسل نوحاً إلى قومه. على أننا لابد أن نقف عند كلمة: «قوم» فبعض الناس يعتقد أن القوم هم القبيلة أو العشيرة أو أهل البلدة، نقول: إن القوم هم الرجال خاصة من هؤلاء. والرجال هم المواجَهون بالرسالات السماوية، والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها، وإما من أخيها، وإما من زوجها، ولقد ورد أن النساء قلن لرسول الله ﷺ: «غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك؛ فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن [١]» أى أن الاحتجاج جاء من أن رسول الله ﷺ كان وقته كله مع الرجال وأن النساء يردن أن يجلسن معه ويسألنه فى أمور دينهن، فجعل لهن يوماً، ولكن المفروض فى المرأة أنها ستر، وأن الذى ينقل إليها المنهج إما زوجها ،وإما أبوها ،وإما أخوها، وهؤلاء يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يذهب كل واحد منهم لينقل ما سمعه لأهله.

وإذا كان كلُ رسولٍ قد واجه قومه فمعنى ذلك: أنه قد واجه الرجال خاصة من قومه.. لماذا؟ لأن «القوم» من قائم على كذا، أو قيّم على كذا، وهذا عمل الرجال، ولذلك قال الشاعر العربى:

وَما أَدْرى ولَسْتُ أَخالُ أَدْرى ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

إذن.. فالقوم المراد بهم الرجال، والقرآن الكريم ينبئ بذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] فكأن النساء لا يدخلن فى القوم، والرجال هم الذين يواجهون دعوة الرسل بالمقاومة وبالتصلب، وبالإنكار والجحود؛ بل بالحروب.

---

(١) أخرج البخارى [١٠١] ومسلم [٢٦٣٣/ ١٥٢] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]

نجد فى هذه الآية ثلاثة أحكام:

الأول: فى العقيدة - فى الإله - أنه إله واحد. وما دام إلهاً واحداً يأتى **الحكم الثانى**: وهو أن نعبده؛ لأنه لا إله غيره وهو واجب العبادة.. والعبادة هى أن نطيع أمره وننتهى عما نهانا عنه، وإذا لم نفعل ذلك يأتى **الحكم الثالث**: وهو أننا سنواجَه بعذاب يوم عظيم، هو عذاب يوم القيامة، أو عذاب يوم عظيم يسبق يوم القيامة، يوم أغرق اللَّه قوم نوح بالطوفان، والخوف: هو شىء مستقبل نخشاه ونخاف أن نلقاه، فكأن نوحاً يُنبّه قومه إلى أن العصيان سيأتى لهم بما يخشونه ومالا يستطيعون دفعه، وأنه قَلِقٌ عليهم من ذلك؛ ولذلك فهو يحاول أن ينجيَهم، وهكذا تتحدد الأحكام الثلاثة فى السورة وهى: أنه لا إله إلا اللَّه، وما دام لا إله غيره فهو واجب العبادة، وعبادته تكون فى طاعة ما أَمَر به واجتناب ما نهى عنه، فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم ينتظرنا.

من هذه الأحكام الثلاثة.. مَن الذى يفزع؟ الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة وأعيان القوم؛ لأن لهم السيادة، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم، فإذا جاء هذا الدين ليساوى بين الناس فى عبادة إله واحد.. الكل عباده، فإنه سيأخذ العروش من تحتهم؛ لأن الأمر سيكون للَّه والنهى والخضوع للَّه، ولا خضوع ولا أمر ولا نهى لعبد من العباد، لذلك فالذى يتصدى للوقوف ضد منهج اللَّه دائماً هم السادة أو المترفون؛ لذلك فإنهم أولُ مَنْ تصدى لدعوة نوح، وأول من يتصدى لأى دعوة من أى نبى، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] والملأ هم سادة قومه وأعيانهم وأشرافهم الذين يملأون العين هيبة، ويملأون القلوب هيبة ويتصدرون المجالس، هؤلاء خافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق إنه ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أى غيبة عن الحق، و ﴿مُّبِينٍ﴾ أى محيط بحيث لا تستطيع أن تبتعد ولا أن تُفلت منه.

ماذا قال نوح عليه السلام لقومه؟ يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه قال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] ولكن هؤلاء الحكام الذين واجهوا دعوة الحق من أولها بالمقاومة قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الرد يقتضى أن يقول نوح: أنا لست فى ضلال، ولكنه قال: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فلماذا استخدم الحق

سبحانه وتعالى ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ بدلاً من «ضلال». حدث ذلك حتى نعرف أن كل حرف من القرآن يأتى على قدر المعنى تماماً، وأن هذا كلام اللّه تعالى وليس كلام بشر. هم يقولون لنوح: أنت ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فيرد عليهم: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾.. لماذا؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة، ولكن نوحاً لا يريد أن يَنفى عن نفسه الضلال فقط، بل يقول: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أى ليس عندى ضلالة واحدة، وهكذا نَفَى مجرد وجود ضلالة واحدة عنده، ونَفْىُ الأقل يعنى نَفْىَ الأكثر، كما تأتى لإنسان وتقول له: هل لديك تمر من تمر المدينة؟ فإذا قال لك: ليس عندى من تمر المدينة؟ فقد يكون عنده تمرة أو اثنتان أو ثلاث، ولكن: ليس عندى ولا تمرة واحدة، أى ليس عنده ولا تمرة واحدة من التمر، وبهذا يكون الأقل قد نفى الأكثر.

ولكن لماذا جاء هذا النفى القاطع فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ لأن منهج اللّه لم يأت به نوح من عنده، فنقول: إنه غلبه الهوى ولو فى ضلالة واحدة أو أن هناك شيئاً غاب عنه ،ولكن المنهج جاء من عند اللّه سبحانه وتعالى، وما دام نوح هو الرسول المبلغ، واللّه سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج، وما دام المنهج من عند اللّه فلا يمكن أن تكون فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة؛ ولذلك يأتى نوح عليه السلام بحيثيات أن ما يبلغه للناس من منهج ليس به ضلالة واحدة فيقول: ﴿... رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ ... ٦٢﴾ [الأعراف] وهكذا جاءت الحيثية من أن المنهج الذى بلغه نوح لقومه ليس فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة؛ لأن نوحاً رسول وما دام رسولاً فهو مبلغ عن اللّه تعالى، واللّه منهجه هو الهدى، ونوح ليس رسولاً من ملك أو حاكم أو عظيم، ولكنه رسول من رب العالمين أى من سيد العالمين، أى من الذى خلق.. الذى خلق لكل خلقه مقومات الحياة.

ذلك أن كل نعم الحياة التى تحفظ للإنسان حياته على الأرض من ماء وهواء وشمس وقمر وزرع كلها من اللّه سبحانه وتعالى، ولا يستطيع مخلوق مهما يبلغ شأنه أن يدّعى مجرد ادعاء أنه هو الذى خلق هذه النعم، وهذه النعم التى وضعها اللّه تعالى فى الأرض هى عطاء ربوبية، أى عطايا لكل خلق اللّه المؤمن منهم والكافر، فالشمس لا تفرق فى أشعتها بين مؤمن وكافر والأرض تنفعل لمن يزرعها.. آمن باللّه تعالى أم جحد وجوده؛ وما دام اللّه قد أوجد هذه النعم وسخّر كل هذا الكون لخدمة الإنسان فقد وضع له منهجاً ليصلح حياته فى الأرض؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى خلق السماوات والأرض وأمدَّ الناس بأرزاقهم حتى

الكافرين منهم لم يكن ليضع منهجاً إلا ليصلح حياة الإنسان الذى خلقه وجعل كل هذا الكون فى خدمته.

فكأن نوحاً عليه السلام بعد أن نفى أن هناك شبهة ضلالة فيما يقول قال: إن هذا الكلام ليس من عندى ولكنه من عند اللّه وما أنا إلا مبلغ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه، بلغت المكان الفلانى أى انتهيت إليه، والبلاغة: هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة، ومعنى ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أى أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم، ولكن ألم يكن يكفى أن يقول نوح: رسالة ربى، بدلاً من أن يقول: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ نقول: إن كل رسول من الرسل يأتى بمنهج يكون فى الأمور الثابتة محتوياً على منهج الرسل الذين سبقوه؛ حتى لا يقال إن رسولاً جاء ليناقض رسالة رسول قبله، فالذى قاله آدم هو الذى قاله نوح، هو الذى قاله شيث، هو الذى قاله إدريس عن وحدانية اللّه تعالى وأنه لا إله إلا هو الواجب العبادة فى هذا الكون.

فمعنى قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أن ما جعله اللّه تعالى منهجاً لأهل الأرض من الأمور الثابتة المستقرة سواء جاءت على لسان من سبقوا فى الرسالات، أو ستأتى على لسان الأنبياء الذين سيُرسلون بعد ذلك؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] إذن ففى الأمور المستقرة الثابتة، والأحكام التى لا تتغير رسالات اللّه كلها واحدة، أو أن يكون معنى ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أنه يتلقى كل يوم رسالة من اللّه تعالى، وكلما جاءت رسالة بلغها إلى قومه؛ لأنه لو قال رسالة ربى لكان من اللازم: إما أن تنزل الرسالة عليه مرة واحدة فى وقت واحد، وإما أن يبقيها عنده ولا يبلغها للناس إلا إذا اكتملت، ولكن كلما نزل إلى نوح شىء من اللّه تعالى يقوم بإبلاغه فيكون كل بلاغ عن اللّه رسالة، وإما لأن موضوع الرسالات أمر يتشعب بقدر ما تحتاجه الحياة من مصالح، وهناك رسالة أوامر، ورسالة نواهٍ، ورسالة للوعظ، وما تحتاج إليه الحياة من مصالح، وهناك رسالة للإنذار، ورسالة للقصص.. وهكذا تتعدد رسالات اللّه تعالى.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ليشمل كل هذه المعانى. أما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ فذلك استكمال لبلاغ كل رسول، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج اللّه والمطلوب منهم، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج؛ لينالوا رضا اللّه

وينجوا من عذابه، فلابد بعد البلاغ من النصح، وإن كان النصح خارجاً عن معنى البلاغ؛ لأن البلاغ معناه أن يبلغ رسالة الله وينتهى كل شيء، ولكن الرسول يظل يُرغِّب قومه فى المنهج ويحببه إليهم ويطلب منهم أن يتبعوه ويترفق معهم فى الكلام، والنصح: هو أن تبين للإنسان المصلحة فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة، وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود نفعه عليك فهى لا تخلو من الغرض، وإذا كانت النصيحة فى أمر يعود عليه هو بالنفع، ففى هذه الحالة تكون نصيحة خالصة بنية صادقة، ولذلك لم يقل الحق أنصحكم، ولكن قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾؛ ليبين أن هذه النصيحة هى لصالح القوم، وأن الرسول لا يستفيد منها شيئاً، فما دام قد بلَّغ فهو قد أدى الأمانة، ولكن النصيحة زيادة فى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه.

ثم يبين الحق حيثيات النصح فيقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. أى أن نوحاً يقول لقومه: إننى أعلم من الله تعالى أشياء لا تعلمونها أنتم، ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من الله لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم، ليست نصيحة أداء واجب، ولكنها نصيحة مَنْ يعلم مما علمه الله، أى أن هذا العلم الذى علمه الرسول ليس علماً من إنسان حتى يكون مشكوكاً فى أنه قد يحدث أو قد لا يحدث، أو يكون قابلاً للصدق والكذب، أو يكون علماً غير مؤكد الحدوث، ولكن هذا علم يقينى من الله سبحانه وتعالى، وكثير من الناس يعتقد أن العلم الذى تبلغه الرسل هو كل ما أعلمهم به الله تعالى، ولكننا نقول: إن العلم الذى تبلغه الرسل للناس ليس هو كل علم الله تعالى، ولا هو كل ما علمه الله للرسل، فهناك أشياء يخص الله سبحانه وتعالى بها رسله ويريهم ما يثبتهم، وأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مقصود به: أن الله أعلم نوحاً بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه، وأن فى هذه الآية إشارة إلى ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ وكان يمكن أن يقول أعجبتم باستخدام همزة الاستفهام، ولكن استخدام واو العطف معناه: أن هناك عطفاً على جملة قادمة، فلو استخدمت همزة الاستفهام لكان السياق يقتضى أن يقال: أكذبتم به وعجبتم من أن الله قد أنزل ذِكْراً على رجل منكم.

إذن.. فاستخدام الواو للعطف جاء أولاً، فالواو للعطف والهمزة للاستفهام،

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نحن نعرف أن الذكر والتذكر ضد النسيان، وأن الشيء يكون على البال أو على اللسان فيذكره الإنسان، أو يتجاوز بالى ولسانى فأنساه، ولكن الذكر فى القرآن له معانٍ كثيرة، وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ فأى معانى الذكر فيها وجه العجب؟ إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شئ على غير ما تقتضيه مقدمات الأمور، حينئذ تتعجب كيف حدث هذا؟ ولكن إذا كانت الأمور تسير بطريقة رتيبة، المقدمات تدل على النتائج، فلا توجد دهشة ولا يوجد عجب، وفى ذلك قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [سورة ق] ما وجه العجب هنا؟ إن الله قد أرسل إلى القوم منذراً أى رسولاً من جنسهم.. ووجه العجب هنا أنهم كانوا يريدونه ملكا، ولكن ما هو الذى تعجبوا منه فى هذه الآية.. أن الرسول قد جاء ليبلغهم بأن هناك إلهاً واحداً واجب العبودية هو الله سبحانه وتعالى، وليس هذا أمراً عجيباً لأن الإنسان إذا تأمل فى الكون ورأى هذه الهندسة البديعة الحكيمة البالغة الدقة التى لم يُوجدها الإنسان، وإنما وُجِدَ الإنسان ليجدها موجودة قبله وتخدمه، كان لابد أن يلفته هذا ليبحث عمن صنع هذا الكون البديع البالغ الدقة فى الصنع، فإذا جاء لهم رسول ليخبرهم بأن الله الذى خلق الكون بكل أجناسه، وسخر كل الأجناس لخدمة الإنسان، فأجناس الكون هى الجماد والنبات والحيوان والإنسان، الجماد يخدم النبات والحيوان والإنسان، والنبات يخدم الحيوان والإنسان، والحيوان يخدم الإنسان.

إذن.. فكل ما فى الكون مُسَخَّر لخدمة الإنسان، وكل ما فى الكون لم يُوجده بشر، ولكنه خُلق أولاً ثم بعد ذلك خُلق الإنسان، كان يجب حينئذ أن يتنبه العقل لكى يبحث عن خالق كل هذه النعم، فإذا جاء رسول وقال: إن الله هو الذى خلق، فكان لابد للناس أن يرحبوا بهذا الرسول ويصدقوه، ويؤمنوا بما يقول.

❁❁❁

عناد قوم نوح وتكذيبهم له

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء] والقوم كلمة تطلق على الرجال؛ لأنهم هم الذين يقومون بمصالح حركة الحياة، فالقوم غير النساء، ولذلك قلنا سابقاً: إن الله تعالى عندما أخبر آدم عليه السلام بأن الشيطان عدو له ولزوجته، فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧] كان السياق يقتضى أن يقول: فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا ولكنه قال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ لأن الرجل هو الذى يتعب ويشقى فى حركة الحياة، والإسلام كرَّم المرأة وأراحها من شقاء حركة الحياة وجعل لهما مهمة أخرى غير الشقاء!!

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قوم نوح كذَّبوا نوحاً فقط، فلماذا قال إنهم كذَّبوا المرسلين؟ قالوا: لأن رسل الله تعالى إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول، فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة، فمن كذَّب رسولاً، فقد كذَّب كل الرسل. ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والاختلاف فى مناهج الرسل هو اختلاف فى التشريعات التى تقتضيها تطورات المجتمعات، لكن العقائد والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير، فالذى يُكذِّب رسولا فى هذه الأشياء كأنه كذَّب كل الرسل.

وكلمة: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ معناها أنه واحد منهم ليس غريبًا عنهم، فهم يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه.

وكلمة: ﴿أَخُوهُمْ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضيًا، ويعرفونه ويعرفون أخلاقه وسلوكه، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه.

بعد ذلك تأتى العبارة التى قالها كل رسول لقومه وهى قول الله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذه الكلمة معناها اتقوا الله، مثلما تقول لابنك المهمل: ألا تستذكرُ، معناها استذكرْ. وهذا الأسلوب من أدوات التحضيض التى تحض على الفعل مثل: لولا تكرم أباك، هلا تنزل ضيفا عندى، ألا تستقبل أخاك بالبشاشة، كل هذه أساليب تحث على فعل هذا الشيء. إذن معنى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين. لذا أطلب منكم أن تتقوا الله لأنكم أنكرتم التقى، ومادمتم أنكرتم

التقى فأنتم تريدون الإثبات. ومعنى ذلك أن الله رحم غفلة القوم وأرسل لهم رسولاً أميناً، هذا الرسول جاءهم من عند الله تعالى ليعطيهم منهج حياتهم كما أراده الله تعالى الذى خلقهم. فالرسول يقول لهم: اتقوا الله الذى أرسلنى إليكم أحمل إليكم وسائل التقوى وأنا رسول أمين، فخذوا أوامر الله ونواهيه واسمعوها منى حتى تتقوا الله وتطيعونى، قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء]. كل رسول سيقول هذا الكلام، هنا الحق سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية شيئاً لم يذكره فى الآيات السابقة مع موسى وإبراهيم عليهما السلام، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. حين تقول لإنسان: إنك لن تأخذ منه أجراً على شىء عملته له، فمعنى ذلك أن هذا العمل كان يستحق الأجر عليه؛ لأنه شىء نافع لك، فأنا لن آخذ عليه أجراً لأنك ستقيمه بمقاييسك البشرية، وأنا لست زاهداً فى الأجر ولكنى سآخذ أجرى من الله. فهذا دليل على أنه عمل جليل لا يستطيع البشر أن يُقَيِّمُوه؛ لأنى سآتيكم بهداية تسعدكم فى دنياكم وتسعدكم فى أخراكم.

ومعنى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أى ما أجرى إلا على رب العالمين. وهذا الموضوع: مثلما يكون لك صديق عزيز وأرسل إليك هدية مع سائق تاكسى يعرفه وقال له: أوصِلْ هذه الأمانة إلى فلان.. فحين يأتيك السائق بالهدية تريد أنت أن تعطيه أجرة التاكسى، فإن كان أمينًا يقول لك: شكرًا لأن الذى أرسلنى إليك بالهدية أعطانى أجرى. هذا مثل ولله تعالى المثل الأعلى فربنا سبحانه وتعالى يعطى الأجر على شىء لا يعود عليه بالنفع، ولكنه يعود على الخلق إذا آمنوا وأطاعوا، فهذا كرم ما بعده كرم. وساعة يقول الرسول لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١١٠] ليس معنى هذا أنها طاعة ذاتية للرسول، ولكن يطيعونه لأنه رسول من عند الله تعالى، وطاعته طاعة لله تعالى.

بعد أن خاطب نوح قومه ودعاهم إلى طاعة الله، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً، ماذا كان ردهم عليه؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] الأرذلون جمع رَذْل: والرذل هو الردئ من الشىء. فهم يقولون له، كيف نؤمن بك وقد اتَّبعك ضعاف الناس وفقراؤهم؟ وفى آية أخرى قالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] وهم يقصدون بالأراذل، الناس الفقراء أصحاب الحرف الضعفاء الذين لا يؤبه لهم، وهؤلاء دائماً هم جنود الرسالة فى

البداية، لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على واحد يأتى ليعدل موازين المجتمع.

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نوح، عليه السلام، حيث قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ [الشعراء: ١١١] مع أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وليس به هو، لأنه مجرد رسول يحمل إليهم منهج الله تعالى ودعوته. وقد يكون معنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ بمعنى نصدقك.

نوح عليه السلام رد عليهم بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء] أى أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقر والقوة والضعف، لأن الإيمان عمل وسلوك. وربنا هو الذى يحاسب الناس على أعمالهم، ومادام الحساب على الله وهؤلاء عجلوا بالإيمان، فلابد أن الله سيجزيهم خير الجزاء، كما أننى لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله تعالى، لأنى نذير من عند الله أنذركم بالشر قبل وقوعه.

بعد ذلك يقول تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أى يبدو أنه لا فائدة من الكلام معك يا نوح، ولكن هذا إنذار لك: لئن لم تنته عما تدعيه من دعوتك إلى عبادة الله وتقريبك للأراذل من الناس لنرجمنك، وهذا تهديد لنوح من قومه، وهذا معناه أنهم قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان. ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام؟ لابد أن يلجأ إلى ربه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء] انظر إلى أدب النبوة، شكا لربه من تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم لأن الله عالم بحاله ومطلع عليه، ولأنه يهمه أن يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به. والفتح فى الشىء يكون إما حسياً وإما معنوياً. فالباب إذا كان مغلقا بالأقفال فمعنى فتحه: أن تزيل هذه المغاليق حتى يفتح، هذا بالنسبة للفتح الحسى، وقد يكون معنوياً بمعنى أن يفتح الله عليك بالخير المادى والعلمى.

فقول نوح عليه السلام: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه يا رب احكم بينى وبينهم، ونجنى أنا والمؤمنين معى من كيدهم، فاستجاب الله تعالى لدعائه ونجاه من شرهم. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]. فالله سبحانه كان يراقب نبيه نوحًا ويوجهه فى صناعة السفينة، قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فربنا سبحانه وتعالى لا يترك خلقه يتصرفون من تلقاء أنفسهم، ولكن يوجههم ويراقبهم ولا يغيب عنه شىء، وكلمة ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ دلت على أن الفلك قد يطلق ويراد به واحد، وكلمة مشحون تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع، لأن السفينة مادامت مشحونة فمعنى ذلك أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى، وهذا يدل على أنها كانت مصنوعة لتتسع لعدد معين من الناس هم ثمانون رجلا وثمانون امرأة ومعهم الأصناف الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها. وبعد أن ركب نوح وأتباعه السفينة تدفق الماء من السماء والأرض. قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر] وبعد ذلك نجى الله المؤمنين وأغرق الكافرين.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء] أى أن فى هذا الذى حدث لأمر عجيب يجب أن يلتفت إليه الناس ولا يغيب عن بالهم هذا الأمر، وإذا كان المعاندون قد غرقوا جميعاً فعلى من بقى، أن يعتبر بما حدث لمن عاند رسولاً من رسل الله ومخالفته، ومع ذلك فإن الله تعالى عزيز لا يغلب، رحيم يقبل توبة التائب مهما فرَّط فى جنب الله تعالى.

❁❁❁

نوح عليه السلام يحذر قومه

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: ٧١] نوح عليه السلام قال: إنه قد توكل على الله تعالى. ومادام قد توكل على ربه، فإنه قد استعان بمن سيحقق له النصر على الكافرين، فهو عليه السلام يعلن بإصرار أنه لن يتنازل عن الدعوة، وأن الله تعالى هو ناصره ورصيده، وهو الذى أرسله وسيظل يحمل دعوته.

ثم بعد ذلك يقول لهم: أما أنتم فأجمعوا أمركم، أى اجتمعوا وقرروا ما تريدون أن تصنعوه معى، وأنتم لن تضرونى شيئاً، خذوا أمركم كجماعة وليس كأفراد، اجتمعوا على قلب رجل واحد واتفقوا. إذن فقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ أى

اجتمعوا على أمر رجل واحد، وإن كان بينكم خلاف فاتركوه وانتهوا إلى اتفاق.

نوح عليه السلام ظل يدعو قومه إلى اللّه ألف سنة إلا خمسين عاما.. وهى مدة طويلة تتعرض لأجيال متعددة. والجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة، أى عندما يبلغ الإنسان سن العشرين ينضج عقله ويستطيع أن يستوعب المنهج، فيدخل فى دعوة نوح، فكم جيل من الأجيال حاول نوح أن يهديه؟ حوالى خمسين جيلا، ومع ذلك لم يؤمن به إلا من تحملهم سفينة واحدة، ومعهم الحيوانات والطيور أيضًا. ونوح خاطب أجيالا مختلفة، ولكنها كانت كلها متأثرة بما يقوله الآباء للأبناء، وبالبيئة التى نشأوا فيها.

أعلن نوح توكله على اللّه تعالى الذى أرسله لأنه سينصره.. ومادام توكل على اللّه فلن يجور عليه أحد من خلق اللّه؛ لأن اللّه فوق الخلق جميعا، والخلق كله: جماده ونباته وحيوانه، إنما سيكون من جنود اللّه، وإذا أردنا دليلاً واقعياً على ذلك، فهو قصة ابن نوح عندما خرج مع الكفار ورفض نصيحة نوح بأن يركب، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] إذن.. فلابد أن ابن نوح نظر فرأى جبلا عالياً ظن أنه يستطيع أن يحميه من الطوفان، ولكنه غفل عن جندى آخر من جنود اللّه وهو الموج الذى حال بينه وبين أبيه فأغرقه، وكل خلق اللّه هم من جنود اللّه، لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض. ولكن الذى خرج عن المراد الشرعى للّه فى الطاعة والمعصية للمنهج هو الإنسان، وخرج بمشيئة اللّه، أى أنه خرج؛ لأن اللّه أراده أن يكون مختارا.

طلب نوح عليه السلام من قومه أن يجتمعوا ويجمعوا أمرهم.. هذا يقول رأيه، وهذا يقول رأيه، إلى أن يتفقوا على أمر.. كيف يُنزلون الشر بنوح، ونوح عليه السلام فى هذا يتحدى قومه، فيقول لهم اجْتَمِعُوا على أمر واحرصوا على أن تنفذوه، فهو حين يقول لهم: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾، ففى هذا تحدٍ؛ لأنه كان يجب أن يحرص على أن يكونوا مختلفين، حتى لا ينتهوا إلى رأى لأنهم أعداء له، ولكنه واثق من أنه مادام قد توكل على ربه، فإن أحداً لن يصل إليه، ولم يقل لهم نوح عليه السلام: أجمعوا أمركم فقط، بل قال وشركاءكم، ومعنى وشركاءكم، أى ما تشركون به من دون اللّه، أى استعينوا بكل القوى التى تستعينون بها من دون اللّه، فإنها لن تفيدكم شيئا، والقول هنا بالاستعانة بالشركاء هو الاستهزاء بأى قوة يحاولون الاستعانة بها؛ لأنها إفك وباطل لن يفيدهم شيئا.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ إذن فالتحدى

الأول هو أن يجمعوا أمرهم، والتحدى الثانى هو أن يستعينوا بالشركاء الذين يمكن أن يعينوهم، والتحدى الثالث ألا يكون الأمر غمة، والغمة منها الغمام ومنها الإغماء الذى هو فقد الوعى أو ستر العقل، فالغمة هى ستر الشىء، أى أن نوحًا قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم وتحاولوا أن تختفوا فى مكان بعيد حتى تتفقوا، بل افعلوا ما تريدون فى العلن وأمام الجميع، ولا تخفوا عليَّ ما اتفقتم عليه، بل أعلنوه، لا تخافوا وافعلوا كل شىء بوضوح وصراحة وعلانية وتحد. ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أى إذا وصلتم إلى قرار فنفذوه، وهناك فرق بين قضى إليه وقضى عليه.. ما هو الفرق؟ قضوا إليه. أى أنهم من الجائز أن يجمعوا الأمر ويصدروا الحكم، ثم بعد ذلك يتنازلون عن التنفيذ أو يؤجلونه. ولكن نوحًا يقول لهم اقضوا إلىَّ، أى: احكموا علىَّ حكمًا نافذًا؛ لأن الحكم على الشىء لا يقتضى بالضرورة التنفيذ، بل يمكن أن يُقضى على شخص مع إيقاف التنفيذ.. إذن فالحكم شىء، والحكم والتنفيذ شيئان.. ولكن اقضوا إلىَّ، أى أصدروا الحكم ونفذوا ما قضيتم به، أى لا تصدروا حكمكم، ثم تقولوا لا تنفيذ، لا تتراجعوا فى الحكم الذى أصدرتموه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أى لا تؤجلوا الحكم إلى غد أو بعد غد، لا تمهلونى فى التنفيذ، بل نفذوا على الفور، وهل يوجد تحد أكبر من ذلك، تحد للخصم المعاند، وهم الأغلبية من قوم نوح، وهو تحد يقفل الباب أمام أيَّة مساومة، أو مصالحة أو عدول، بل يثير فى الخصم التحدى للتنفيذ، مع أن الخصم كثرة، ونوحًا والمؤمنين قلة، والإمكانات التى يملكها الكفار كبيرة وكثيرة، والإمكانات التى يملكها نوح والمؤمنون ضعيفة.. فلماذا هذا التحدى؟

أولاً: لأن نوحاً قد توكل على اللّه تعالى، فلا توجد قوة فى الكون تستطيع أن تصل إليه.

ثانياً: لأن نوحاً ظل يعظهم ويهديهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ولم تنفع هذه المدة الطويلة فى هدايتهم أو جَعْلِهم يتركون الكفر ويتخذون طريق الإيمان.

ثالثاً: لأن اللّه تعالى أوحى إلى نوح أن هؤلاء القوم الكافرين لن يؤمنوا مهما دعاهم.

وفى ذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وهكذا بعلم الحق سبحانه وتعالى الأزلى لم تكن هناك فائدة من استمرار الدعوة؛ لأن هؤلاء الكافرين قد ملأ الكفر

قلوبهم وختم اللّه سبحانه وتعالى عليها، فهم لن يؤمنوا. إذن.. فكان لابد أن يأتى فاصل، وأن يكون الفاصل قوياً، وأن يعرف الكفار أن اللّه سبحانه وتعالى هو الحق، وأن ينالوا الجزاء على كفرهم وعنادهم، فليفعلوا كما يريدون، وليتآمروا كما شاءوا، فقد حق عليهم عذاب السماء.

❁❁❁

بشرية الرسول ضرورة

قال اللّه تعالى إن قوم نوح قالوا له لما دعاهم لعبادة اللّه وحده: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ هذا الاعتراضُ حجةٌ عليهم وليس حجةً لهم، واعتراض فيه من غباء القوم وليس فيه شيءٌ من الفكرِ أو الحكمةِ. فبشرية الرسول ضرورة لإبلاغ الرسالة، فالرسول كبشر عاش مع قومه سنوات قبل أن يكلف بالرسالة، اشتهر خلالها بحسن الخلق والأمانة وكل خلق حميد، حتى يعرفه قومه ويعرفوا أنه لا يكذب، وأنه إنسان سوى يتصف بالصفات الحميدة حتى إذا كُلّفَ بالرسالة كانت المقدمات تؤكد صدق بلاغه عن اللّه تعالى.

والرسول قدوة يُطبّق المنهج عملياً أمام الناس، وهم يقتدون به، أى يفعلون مثله ولو كان من غير البشر. لو كان ملكاً مثلاً لقالوا يارب هذا مخلوقٌ من نورٍ، مفطور على الطاعةِ، طبيعة خلقه تعصمه من نزوات البشر. ونحن مَخْلُوقون من طين، لنا شهوات، ولسنا معصومين، كيف يمكن أن يكون المفطور على الطاعة المخلوق من نور قدوة لنا؟ ونحن مخلوقون من طين، مختارون فى الطاعة والمعصية، لا يمكن أن يكون هذا الرسول قدوة لنا. إذن فبشرية الرسول حتمية ومن تمام الرسالة.

ثم تمضى الآية الكريمة تقول: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ والأراذل هم نفاية الشىء أو أدناه، وهم القوم المطحونون من الفساد، وهؤلاء بسبب ظلم الأغنياء والأقوياء لهم هم أول من يسارع إلى الإيمان بالرسول، لأنهم يرون فى منهج السماء الذى يحمله دفعا للظلم عنهم وإعادة لحقوقهم، وما من ثورة اجتماعية إلا كان أول الذين ينضمون إليها ويؤيدونها وتقوم على أكتافهم أولئك المظلومين المطحونين، أما المترفون فلماذا لا يؤيدون الثورة؟ هم يريدون أن يبقى الحال على ما هو عليه، لأنهم فى عزة وترف ومال. ولذلك فإن المترفين فى أى نظام هم الذين يهربون نجاةً بحياتهم من أى ثورة تتم، لأنهم هم

المقصودون بالثورة لتوقف ظلمهم، وتنزع منهم مكانتهم الاجتماعية وتزيل ظلمهم عن الناس.

وقوله تعالى: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أى ظاهر الرأى أو أول الرأى، أى أنهم آمنوا بمجرد إبلاغهم المنهج، ولم يناقشوه أو يتمهلوا ليدرسوه، ولكن هؤلاء الكفار الذين يتهمون أول من آمنوا بنوح بأنهم أراذل القوم وأنهم لم يتعمقوا فى المنهج ويدرسوه، نقول لهم: إنهم عند اللّه تعالى ليسوا أراذل، لأن المقاييس الحقيقية للأشياء ليست المقاييس التى عندكم وهى المال والجاه والسلطان وكل ما يعطيكم السيادة، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه [1]، وهؤلاء الأراذل، الواحد منهم أفضل عند اللّه تعالى من ألوف الكافرين. إذن فهم ليسوا أراذل كما تدعون، ولكن لهم مقام كبير عند خالقهم يوم القيامة، أما قولكم إنهم سارعوا إلى الإيمان؛ فلأنهم وجدوه يدافع عن الحق، ويساوى بين الناس ويخلص المجتمع من آفاته وشروره، فانطلقوا إلى الإيمان، وكان لهم رأى. إن المسألة ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى تعمق أو جدل. ولكن أنتم بكفركم تريدون أن تختلقوا أسبابًا لعدم الإيمان، وتريدون أن تجادلوا بالباطل. إذن فمقاييسكم هابطة لأنكم ترون الحق ولا تؤمنون به، وليس هناك عند اللّه أراذل وعلْيَةٌ من القوم إلا الإيمان. والحرفة الصغيرة تتعبك إذا امتنع صاحبها عن عمله. فلو لم يوجد ذلك الذى ينظف الطريق لامتلأ بالقمامة وأصبح مصدرًا لأمراضٍ تصيبنا جميعًا وتهلكنا؛ بل إن الذى يمسح لك الحذاء يقوم بعملٍ هام ليحفظ لك مظهرك اللائق فى المجتمع بدلاً من أن تمشى بحذاءٍ متسخ، وذلك الذى يقوم بتسليك المجارى لو أنه امتنع عن عمله؛ لانتشرت الأمراض والأوبئة بين الناس، فإياك أن تحتقر أى عمل مهما كان صغيراً، فهذا العمل الصغير ومن يقومون به هو الذى يعطيك ترف الحياة ويجعل حياتك مريحةً. أنت سيدٌ فى بيتك، ولكن هذه السيادة هى من عمل الآخرين، هم الذين بجهدهم حققوها لك، ولو تخلوا عنك ما استطعت أن تكون سيداً، فلا تحقِّر أى عمل فى المجتمع.

ثم يقول الحق: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قول يوضح لنا فكر هؤلاء الكافرين البعيد عن الحقيقة، فكما بيَّنا فإن المترف صاحب النفوذ لكل الناس فضل عليه، ولكى تعرف أن منطق الكافرين واحد اقرأ قول الحق عن كفار قريش عندما أرادوا أن يوردوا حججهم

(١) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال [ج٢/ باب ٢٨].

بعدم الإيمان برسالة محمد قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] إذن فهم اعترفوا بصحة القرآن، ولكن سبب عدم إيمانهم: أنهم كانوا يريدون أن ينزل القرآن على واحد من أغنياء قريش وعظمائها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. لو علم هؤلاء الناس ما معنى الفضل ما قالوه، فالفضل هو الزائد على الحاجة، والفضل يقتضى فاضلاً ومفضولاً عليه. وكل إنسان فاضل ومفضول عليه، فكل منا فاضل فى مهنته أو حرفته أو ماله، وكل منا مفضول عليه فى مواهب أخرى.. هذا هو الفضل. فكل منا له فضل فى الأمر الزائد على حاجته، فيكون العالم كله مرتبط ارتباط تبادل منفعة وليس ارتباط سيطرة. ولذلك نقول لكل من يدعى أن له فضلاً وليس مفضولاً عليه: تواضع لأنك ما سيطرت إلا بمن لهم فضل عليك فى نواحٍ أخرى، فاستخدمتهم ليحققوا لك ما أنت فيه.

وقوله تعالى: ﴿بَل نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] الظن معناه نسبة راجحة وليس حكماً فى قضية، الراجح هو الظن، والمرجوح هو الوهم، فهم يتحدثون ظناً وليس حقيقة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] إذن.. فالظن غير الحقيقة، ولذلك لم يقولوا نعتقد أنكم كاذبون، وإنما قالوا: وإنا لنظن أنكم كاذبون.

وقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨] البينة هى التى جاءت من الله تعالى كهبة دون أن يكون للإنسان فضل فيها. والبينة هنا هى الرسالة، التى هى النور والبصيرة والهداية والفطرة، والرحمة هى هدف الرسالة. ثم يقول الحق: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]. أى: عميت أبصاركم وإن كانت تنظر، إلا أنها لا ترى آيات الله. وقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾. أنلزمكموها: مكونة من الهمزة ونلزم وهى الفعل.. من الذى نلزمه؟ هو المخاطب، ونلزمه بماذا؟ بالإيمان بمنهج الله تعالى.

إذن.. فهناك استفهام وفعل وفاعل مطمور فى الفعل، ومفعول أول ومفعول ثان. المفعول الأول هو كاف المخاطبة فى قوله ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أى أنفرضها عليكم بالقهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها؟ طبعا لا.. لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لابد

أن يكون طواعية وعن اختيار، ولو أن اللّه سبحانه وتعالى أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك. ولكن اللّه تعالى يريد أن يأتيه الإنسان عن حب واختيار وليس عن قهر، لأن الإكراه هو إخضاع القوالب، واللّه يريد قلوباً تخشع وليس قوالب تخضع. ولو أن الحق يريد الإخضاع بالإكراه، لأخضعنا كما أخضع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره.

إذن.. فالدين لم يأت للإكراه، ولكنه جاء لنؤمن به طواعيةً واختيارًا. والحق يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الحق يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي﴾ [هود: ٢٩] هذه الآية الكريمة وردت مع كل رسول، قد جاءت بقوله تعالى: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١] مرة، و ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ مرة، ما هو الفرق؟ لأن الرسول قد يسألهم أجراً لا يكون فيه مال كأن يسألهم تمراً أو شعيراً أو قمحاً أو غير ذلك. ومرة يسألهم مالاً ولا يسألهم أجراً عينياً. ولذلك نفى اللّه تعالى عن رسله أن يأخذوا أجراً أو يأخذوا مالاً، حتى تنتفى كل أنواع الاستفادة المادية. وهذا يدل على أن منهج اللّه الذى جاء به الرسول أمر نافع للناس، لأن الأجر لا يستحق إلا مقابل المنفعة، فالأشياء إما أن تأخذها، أى تشتريها، وإما أن تأخذ المنفعة وتظل العين لمالكها، وهذا يسمى استئجار، فكأن الذى قدمه الرسل كان يجب أن يكون له أجر، ولكن المنفعة الدنيوية ليست هى هدف الرسل؛ بل هم يريدون أجرهم من اللّه فى الآخرة، وهذا لأنه فى الآخرة الأجر من اللّه مباشرة، وبقدرات اللّه وهو أجر دائم أبدى عظيم.

قوم نوح قد طلبوا منه أن يطرد الفقراء الذين آمنوا، ويعدون بأنه إذا طردهم فإنهم سيتبعونه، انظر إلى الرد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [هود: ٢٩] أى لن أطرد الذين أعلنوا إيمانهم لأنهم لا يعجبونكم، فهم عند اللّه أفضل منكم. وهذا القول هو الذى رد به نوح عليه السلام على وجهاء قومه الذين طلبوا منه أن يطرد الفقراء، أى أنكم لم تفهموا مهمتى. إن هؤلاء القوم جاءونى على الإيمان والجزاء فى الآخرة، ولم يأتونى ليحققوا مالا أو ربحًا، ولو أنى طردتهم لكان هذا غير مقبول منى عند اللّه فأنا لم أجئ للمترفين وحدهم، وإنما جئت لأهدى كل الناس، وإن أكرم الناس عند اللّه ليس أغناهم ولكن أتقاهم.

ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] أى أن الذين جاءوا إلى

نوح وطلبوا منه طرد الفقراء هم قوم جهلاء يجهلون مهمة نوح، ويجهلون الحقيقة، وهى أن منهج الله لا يفرق بين الناس بغناهم أو بفقرهم، فهذا عرض دنيوى زائل، ثم يأتى نوح بالحجة البالغة فى قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠] هناك تَذَكُّر، وهناك تَفَكُّر، وهناك تعقل، وهناك تدبر. التذكر: أن يكون قد حدث لك شىء نسيته وتذكرته بسبب قولٍ ما أو حادث ما. والتفكر: أن تستنبط شيئاً جديداً بعقلك. والتعقل: أن تستخدم عقلك فى فهم الأشياء، والتدبر: أن تكون هناك أشياء تقال لك فتتدبر فيها، لا تأخذ ظواهرها ولكن تأخذ حقائقها، وفى ذلك يقول الحق: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] أى ألا يفكرون فى العطاءات والكنوز التى فى القرآن، أم يأخذون الظاهر ولا يفكرون فيه. والتدبر: هو الذى يأتيك بالمعانى الحقيقية. ولذلك روى أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يقول: «سوروا القرآن».

إذن.. فنوح يقول لهم: من ينصرنى من الله إن خالفت منهجه، تذكروا هذا جيداً، لأنه لا ناصر من الله فى الدنيا والآخرة، ويذكرهم نوح ببشريته. واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١] وهذا الرد سد منافذ الاعتراض على الكافرين، فقال: أنا لم أقل لكم إن عندى خزائن الأرض، فأطيعونى من أجل مالى، ولم أقل لكم إنى أعلم الغيب، فأطيعونى أقُل لكم الغيب وأعلمه لكم، ولم أقل لكم إنى ملِك ذو قوة أكثر من قوتكم، فأطيعونى خوفًا من بطشى وعذابى، ولم أدَّع أننى من جنس آخر متفوق عليكم، فإننى بشر مثلكم، وما دمت بشراً فأنا لا أزيد على أولئك الذين تزدرى أعينكم، وكلنا سنلقى الله فى الآخرة، وأنا أخاف هذا الموقف لأنى إن طردت المؤمنين سيحاسبنى الله على ذلك.

ثم يكمل الحق: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١] أى أن أولئك الذين تحتقرونهم وتزدرونهم بأعينكم، لا أقول لهم: إن الله لن يؤتيهم خيرًا، فالخطاب هنا ليس موجهاً إلى هؤلاء الفقراء من المؤمنين، فقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾.

أى أن نوحاً عليه السلام قال للكفار من قومه: إذا قلت للذين تزدرى أعينكم إن الله لن يؤتيهم خيرًا، أكون إذن.. ظالماً، وإذا طردتهم أكون أيضاً ظالمًا، وهنا رد الكفار على نوح، واقرأ قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢] ونوح ظل يجادل قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، هذه الفترة الكبيرة قضاها فى

حوار وأخذ وَرَدٌ مع قومه ليؤمنوا، والجدل هو المقاولة، هذا يقول كلاماً وذلك يقول كلاماً يقابله، وكل واحد من القائلين يريد أن يهدم حجة الآخر أو يضع فيها شبهة كى يسقطها.

إذن.. فالمجادلة: مقاولة اثنين متقابلين فى الكلام، وكل من الطرفين يحاول أن يهدم حجة الآخر.

❁❁❁

الطوفان.. وهلاك الكافرين

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فبعد تسعمائة وخمسين سنة من الدعوة، هذه الفترة الزمنية الطويلة التى قضاها نوح فى تبليغ رسالة ربه ومجادلة الكافرين ونصحهم، وصل بذلك إلى قمة المجادلة جيلاً بعد جيل. قال اللّه تعالى له: انتهت مهمتك، فمهما فعلت ومهما دعوت فلن يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلا. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ حرف استثناء، وساعة تقول ﴿إِلَّا﴾ يكون الذى بعدها خارجًا عما قبلها. فإذا قلت: جاء القوم إلا فلاناً. فمعنى ذلك أن القوم كلهم جاءوا وفلان لم يأت. ومادام لن يؤمن أحد من قوم نوح إلا من قد آمن، لا يكون هذا استثناء، ولكن تكون «إلا» بمعنى غير من قد آمن، أى لن يؤمن من قوم نوح غير الذين آمنوا، لأنه لا يوجد استثناء هنا.

لذلك دعا عليهم نوح كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح].

وأعطى الحق تبارك وتعالى أمره إلى نوح ليبنى السفينة، فيقول تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] وهكذا نعرف أن الحق أمر نوحاً ببناء السفينة؛ لأنه سيغرق الكفار، أما المؤمنون فسينجون. إذن.. فقد علم نوح فى هذه اللحظة بإغراق الكافرين.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى أن الحق سيلهم نوحًا بوحيه كيف يصنع السفينة، وعلّمه كيفية صناعتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فإن اللّه لا يقبل شفاعة فى هؤلاء الكافرين؛ لأنهم ظلوا فترة طويلة وهم يعاندون نوحاً عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة

السفن. ولكن اللّه تعالى هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينة، أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينة. إن اللّه يقول لنبيه نوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى بوحى منا وعلم بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وقول اللّه جل جلاله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أى إنهم سيهلكون بالغرق.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] كأن القوم الذين كانوا حول نوح مؤمنين أو غير مؤمنين لم يكونوا يعرفون لماذا يصنع السفينة؟؛ بل إنهم تعجبوا من هذه المسألة. وكلما مر الذين كفروا على نوح ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ لأنه يصنع شيئا غير معروف لديهم ومستغرب عندهم.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] أى أنهم يربطون الألواح بالحبال، مثل الذى صنع من ورق البردى سفينة ليذهب بها إلى أمريكا، كلها مربوطة بالحبال محكم رباطها، فيأتى بأوراق البردى ويحكم ربطها بعضها مع بعض، لكى يكون الربط محكماً فلا يدخل الماء إلى السفينة ليغرقها. اللّه علّم نوحاً بأن يأتى بالخشب الجاف ويربطه بالحبال، وبعد ذلك عندما يكون الخشب فى الماء يزداد حجمه فيسد المسام بدقة أكبر، مثل الذين يصنعون البراميل ويضعون فيها الأشياء السائلة فلا ترشح من الخارج، لأن الخشب مدهون بالقطران الذى يسد المسام، والخشب من المواد التى تتمدد بالبرودة.

وما دام الحق قال: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وضحت تمامًا حكمة صناعة الفلك، لأن الذين ينجون هم نوح والذين آمنوا معه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] أنتم تأخذون ما نصنع بظاهر الأشياء، بأن المكان ليس فيه بحر أو بحيرات تستخدم فيها السفينة، ولكنكم لا تعلمون ماذا سيحدث لكم. لقد سخروا من نوح، وقالوا: بعد أن كان نبياً أصبح نجاراً، لو كان نبيًا حقاً ما لجأ إلى هذا، لقد قالوا: إن هذه السفينة بعيدة عن البحر، فكيف سينقلها؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها، وهو الذى سيرفعها، لم يعرفوا أن طوفانًا قادمًا وأنهم مغرقون. ولذلك كلما مر عليه كبار قومه الذين لم يؤمنوا سخروا من نوح واتخذوه سخرية لهم، نبى يصنع سفينة وسط يابسة فى مكان بعيد جداً عن البحر، ولم يدركوا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩] أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينة الآن، ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل.

إذن . . فالحدث له عدة صور، فإذا تكلمت بالفعل الدال على الحدث، وكان كلامك بعد حدوثه يكون الفعل ماضيًا، وإن كان كلامك ساعة حدوثه يكون الفعل مضارعًا، وإذا كان سيقع فى المستقبل القريب يستخدم فيه حرف السين، وإن كان مسبوقًا بسوف فإنه يكون فى المستقبل البعيد. واستخدام الحق سبحانه وتعالى كلمة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن نوحًا صنع السفينة فى عدة سنوات، وأنهم بعد هذه السنوات سيعلمون. ولذلك عندما قال نوح عليه السلام: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى سيمر وقت طويل حتى تعلموه. إذن . . فالآية الكريمة جاءت على أوسع مدى من الزمن، ولكن تعلمون ماذا؟ ما الذى سوف تعلمونه؟

الحق يقول: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] إذن . . فالطوفان الذى سيأتى، سيخزى هؤلاء الكفار، لأنهم كانوا يسخرون ويقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، كلمة يحل ضد الرحيل، يعنى نزل إلى مكان للإقامة فيه بصفة دائمة، وضدها الرحيل أو الترحال، أى نزل إلى مكان ليقضى فيه فترة قصيرة ويرحل: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعنى عذاب دائم، عذاب لا يتركهم أبداً، بل يقيم معهم إقامة دائمة، هو معهم كل الوقت، لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه.

الحق يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[هود: ٤٠]﴿حَتَّىٰ﴾ تدل على الغاية، ﴿أَمْرُنَا﴾ أى الطوفان الذى سيأتيهم. الحق سبحانه يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إذن فكم مرحلة؟ أمر من الله بصناعة الفلك، وتنفيذ نوح لأمر الله بصناعة الفلك ثم انتظار نوح إلى أن يأتى الطوفان. إذن فهى عدة مراحل تحمَّل فيها نوح سخرية الكفار منه واتهامهم له بأنه ترك النبوة وأصبح نجارًا.

يقول الحق: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فار يعنى غلى مثلما يقال الماء فار أى غلى، والغليان هو أعلى سخونة للماء، والماء يكون فيه هواء. والدليل على ذلك، أن السمك يتنفس منه، عندما يغلى الماء تجد أن فقاقيع الهواء قد خرجت منه.

ولقد كان من اللازم أن تكون هناك علامة لنوح عندما يرى التنور يفور فيه الماء، ويقولون إن أصل هذا التنور أو المخبز أن نوحًا كان يخبز فيه. وأن التنور كان مخبز سيدنا آدم، الذى يهمنا أنه كان علامة بين نوح وبين ربه يعرف بها قرب بداية الطوفان. وكان على نوح عندما يرى هذه العلامة، أن يجمع من كل شىء زوجين، أى من كل ما تتطلبه حياة الناجين من المؤمنين، والناجون محتاجون إلى أشياء كثيرة، محتاجون إلى أنعام وطير وهوام ووحوش وسباع؛ بل هم محتاجون إلى خنزير أيضًا. ولذلك عندما يقال إذا كان لحم الخنزير محرمًا فلماذا خلقه الله؟

نقول إنه: لم يخلق ليؤكل، ولكن له مهام أخرى فى الدنيا، هى أكل القاذورات والقمامة حتى لا تتعفن وتملأ الدنيا بالجراثيم والأمراض.

ويقال إنه عندما حمل نوح من كل زوجين اثنين، لم يكن الخنزير موجودًا معه على السفينة، وعندما خرجت من الراكبين فى السفينة فضلاتهم، كانت الرائحة كريهة جداً لا يطيقونها. فالله تعالى أمر الأسد أن يعطس، فعطس فخرج من عطسته خنزير، هذا الخنزير راح يأكل الفضلات والقاذورات والزبالة فقضى على الرائحة الكريهة فى السفينة ونجا راكبوها من أمراض وجراثيم ربما كانت ستقضى عليهم، وخصوصاً أن الرحلة استمرت عامين.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] يعنى من كل شىء زوجين، يردفه العدد، وكلمة زوجين اثنين دلت على أنهما اثنان.. لماذا جاءت كلمة اثنين؟ لأنه يشيع بين الناس أن الزوج مكون من اثنين. ولذلك يقولون عدد فردى وعدد زوجى، ولكن الحقيقة أن الزوج لا يعنى اثنين. ولكن يعنى واحدًا ومعه مثله، إياك أن تعتقد أن زوجًا معناه شيئان.. لا.. زوج يعنى واحدًا. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أى زوج فرد ولكن معه مثله، ليكون الاثنان زوجين اثنين، فلا تعتقد أن زوجين يعنى أربعة، لأنك قد تأخذ الزوج على أنه اثنان، وتكون كلمة زوجين اثنين تعنى أربعة، كلمة زوجين تعنى اثنين ولكنهما متماثلان.

وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾، إذن.. فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله. فإذا قلنا زوجين اثنين أى فردين، ولذلك جمعهم الحق ثمانية، ولو كان الزوج يطلق على اثنين لكانوا ستة عشر. ولذلك يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة] قول الحق جل جلاله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أى أن الذكر زوج والأنثى زوج، وهما معا

زوجان اثنان. واللَّه تعالى أراد بذلك استبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها. ولذلك طلب من كل زوجين اثنين لأنه ينجيهم بالسفينة من الغرق، فلابد أن يهيِّئ لهم استبقاء الحياة وإلا انقرضوا، ويقولون: إن السفينة مكثت سنتين فى الماء، فلابد أن يكون فيها عوامل استبقاء الحياة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وهذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة سفينة نوح.

المرحلة الأولى: أمر من اللَّه تعالى لنوح بأن يصنع السفينة.

والمرحلة الثانية: هى قيام نوح بصناعة السفينة، وظل نوح يصنع السفينة عدة سنوات

والمرحلة الثالثة: هى العلامة بأن يخرج الماء من التنور مكان مخبز معروف فى القرية.

والمرحلة الرابعة: أن يحمل نوح معه فى السفينة من كل شىء زوجين اثنين وأهله.

والمرحلة الأخيرة: لكل من أعدهم لركوب السفينة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ القول من نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ هو أمر من اللَّه تعالى إلى نوح بأن يأمرهم أن يركبوا فى السفينة، والركوب أن يكون الراكب مستعليًا على ما يركبه، وتكون السفينة فى خدمة من ركبوها، فكأن تسخير اللَّه تعالى للسفينة كى تخدم من ركبها وتطيعه. ولكن الحق قال: اركبوا فيها ولم يقل: اركبوا عليها، والركوب يكون على السفينة.

ولكن الحق يريد أن يعطينا لقطة بأن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن الآن. ولذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها، ولم تكن من طابق ولكنها من عدة طوابق، وفيها عدة أدوار لأن فيها خلقًا مختلفًا، فيها حيوانات ووحوش وحشرات ودواب وبشر وغير ذلك، ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض. إذن فلابد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فالسفينة مصنوعة لكى تنجى الذين آمنوا وتنجى معهم من كل أجناس الحياة على الأرض زوجين اثنين، وبما أنها مصنوعة لتنجيهم من الغرق فلابد أن تسير بمن فيها إلى مكان عال لا

يصله الماء. إذن فلابد من الجريان بمن فيها ولابد من الرسو. ولذلك فجريانها يكون بسم اللَّه ومرساها يكون بسم اللَّه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن الذين آمنوا مع نوح.. صحيح أنهم آمنوا ولكنهم ليسوا ملائكة؛ بل هم بشر، قد يكون منهم من أخطأ واستغفر، أو من أذنب وتاب، أو من آمن، ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة. ولكن اللَّه تعالى قدَّر أنهم آمنوا، فغفرلهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التى ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم.

ولذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كما يقول القاضى باسم القانون أو باسم الدستور أو باسم الشعب، أى أننى لا آخذ حيثية الحكم من ذاتى ولكن باسم من خوَّلها لى، فالذين سيركبون هذه السفينة، حيثية ركوبهم أنهم آمنوا باللَّه تعالى، لأن السفينة للَّه أمر، وللرسول صناعة، وكل هذا من اللَّه تعالى.

ولذلك يقولون: كل شىء لا يبدأ بسم اللَّه هو أبتر.. لماذا؟ لأن كل فعل يحتاج إلى طاقات، فإذا كان فعلا عضليًا احتاج لقوة، وإن كان فعلا عقليًا احتاج إلى ذكاء وفكر، وإن كان فعلا قتاليًا احتاج لشجاعة، وإن كان فعلا للإصلاح بين الناس احتاج إلى صبر، فاحتياجات الأحداث لابد لها من طاقات مختلفة، وأنت إن أردت القوة تقول: باسم القادر أو باسم القوى، وإذا أردت علمًا تقول باسم العليم، وإذا أردت غنى تقول باسم الغنى، وإن أردت حلمًا تقول باسم الحليم، واذا أردت انتصارًا فى الحرب تقول باسم القهار.

ولكن هناك أحداثًا تحتاج لهذه الأشياء كلها، ولذلك علَّمنا اللَّه أن نستعين باسم واجد الوجود، بسم اللَّه.. ففيه كل صفات الكمال للَّه سبحانه وتعالى. فإذا قلت: بسم اللَّه إن كنت تريد قوة للفعل أعطاك، وإن كنت تريد شجاعة وجدتها، وإن كنت تريد غنى يغنيك، وإياك أن تتهيب أن تستعين باللَّه لأن لك معاصى، فاللَّه سبحانه وتعالى رحمن ورحيم. إذن فقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه أن اللَّه نجى من هم فى السفينة لأنه غفور رحيم.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] تدلنا على أنها مُسيرة بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى. ولذلك فإن هذه الأمواج التى وصفها اللَّه أنها فى علوها وضخامتها كالجبال، هذه الأمواج التى لابد أن تغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئا لسفينة نوح، فلم تضربها بقوة أو تقلبها أو تضرها على أى شكل من الأشكال؛ بل إن السفينة تجرى، أى تمشى بسرعة عالية بين أمواج كالجبال؛ بل إن طريقها الذى رسمه اللَّه تعالى لها ليس فيه موج يعوقها أو يضرها، ولك أن تتخيل

سفينة فى بحر هائل بين أمواج كالجبال، كيف يمكن أن تبحر حتى إذا لم تغرقها الأمواج، فإنها على الأقل لا تجعلها تسير بسرعة. ولكن لأن سفينة نوح تسير بأمر اللّه تعالى، فإن هذه الأمواج لم تؤثر فيها.

وهكذا نفذ الماء أمر اللّه وأغرق الكافرين جميعًا بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان. والحق أراد أن يعطينا صورة لنهاية الطوفان الذى أغرق الأرض، فقال جل جلاله ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤] البلع: هو مرور الشىء من الحلق ليسقط فى الجوف، يقال لك ابلع ما فى فمك، أى أدخله من الحلق إلى جوفك، والحق تبارك وتعالى وصف لنا الطوفان وكيف تم بأمر اللّه، فقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر] هذه اللقطة وهى كيفية حدوث الطوفان لم تأت فى هذه الآية لنعرف أن القرآن يكمل بعضه بعضًا، ففيما حكاه اللّه سبحانه وتعالى لنا فى الآيات التى نحن بصددها، أعطانا سبحانه وصفًا إجماليًا للأحداث، وذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ . . . ﴿٤٢﴾﴾ [هود] أعطانا اللقطة إجمالية ولم يقل لنا كيف حدث الطوفان. ولكن فى آية أخرى أعطانا صورة كيف حدث؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يربى فينا فطنة الإيمان، ونحن مشغولون بقضية إيمانية، هى ابن رسول لم يؤمن برسالة أبيه، كان لابد أن يبين لنا ما هو حكمه فى هذه الحالة؟ وهل سيشفع لابن نوح أن والده نبى فينجيه اللّه بكرامة أبيه، أم سيلقى نفس المصير الذى لقيه من كفر برسالة نوح؟ فلو أعطانا الحق هذه التفاصيل وكيف بدأ وماذا حدث؟ لابتعدت أذهاننا عن اللقطة الإيمانية التى يريدنا الحق، أن ننتبه إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ أى خذى الماء من السطح إلى جوفك، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أى امتنعى عن المطر. وهكذا يمتنع المطر وتبتلع الأرض الماء فينتهى الطوفان، لأنه لو كان عندنا مكان فيه مطر والبالوعة مسدودة فإن أول شىء نفعله هو أن نجعل البالوعة تعمل، ثم ندعو اللّه تعالى بالنسبة للمطر، فنقول يارب حوالينا ولا علينا. وهكذا أمر اللّه الأرض أن تبتلع الماء فى جوفها، وأمر السماء أن تتوقف عن المطر.

وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] مادة غاض تستعمل لازمة وتستعمل متعدية، أى تقول غاض الماء وغاض اللّه الماء يصح الاثنان، ولكن الحق قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وبناها للمجهول، من الذى غوَّض الماء؟ اللّه سبحانه وتعالى، ثم

يقول جل جلاله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] قضى أمر ماذا؟ أمر الله فى إهلاك الكافرين، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ أى استوت السفينة على الجبل، والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أى أن القوم الظالمين ابتعدوا بعدًا نهائيًا عن الإفساد فى الأرض، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم. إذن فابتعاد القوم الظالمين الذين كفروا برسالة نوح عن الإفساد فى الأرض أصبح نهائيا، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون، ولكن هل هؤلاء وذريتهم سيظلون مؤمنين؟ أم ستدخل الغفلة إلى قلوب الذرية فيشركون ويكفرون ويفسدون فى الأرض؟ طبعًا كما نعلم من القرآن الكريم، فإن الذرية ستعود إلى الكفر والظلم، فيبعث الله رسولا جديدًا ليعيدهم إلى الإيمان، ويهلك الله الكافرين، وهذه عملية متكررة سببها الغفلة وعبادة الدنيا وطمع الإنسان ونسيانه حساب الله الذى ينتظره يوم القيامة.

❁❁❁

نهاية الطوفان.. وعودة للحياة الطبيعية

بعد أن تم ما قضى الله تعالى وقدر قال سبحانه وتعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾: أى: انزل من السفينة لتباشر مهمتك الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة التى حملتها معك فى السفينة من كل زوجين اثنين وفيها المؤمنون كلهم، وقد شهدوا طوفانًا سيظل فى بالهم حينما يرون أنهم وحدهم الناجون منه، وقوله تعالى: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لأن نوحًا حمل معه فى السفينة من كل أمم الأرض زوجين اثنين. وهذه الأمم هى الوحوش والحيوانات والحشرات والطير والدواب وغير ذلك. ولكن الأمة الأساسية التى حملها نوح فى السفينة هى بنى الإنسان، أما باقى الأمم فهى تخدم الإنسان فى الأرض، ونوح فى هذا له مقومات الحياة على الأرض، لأنه لا يوجد على الأرض ساعة هبوط نوح ومن فى سفينته إلا المؤمنون، أما الكافرون فقد أغرقهم الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أى بأمن واطمئنان؛ لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون، ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليه أمره؛ بل إنَّ كل من معك شاهدوا صنع الله تعالى وهو ينجيك وينجيهم من الغرق والموت. وقوله تعالى: ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء؛ لأن معنى البركة: أن يعطى الشىء

أكثر مما هو متوقع منه. فإذا أحضرت الغذاء لاثنين وجاءك ضيوف فجأة، فأكلوا حتى شبعوا، تقول: هذا طعام مبروك، ونوح معه من كل زوجين اثنين سيتكاثرون بسرعة ويملأون المكان.

ثم يقول الحق: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. [هود: ٤٨] أى أن الأمم التى معك سيدخلون الجنة، ثم بعد ذلك تأتى الأجيال التى بعدهم وتطرأ الغفلة على قلوبهم فينقلبوا كافرين.

إذن.. فالغفلة تنسج كالحصير عودًا عودًا، تأتى بعود أولا، ثم الثانى فالثالث[1]، وهكذا كلما يزداد عودًا تزيد رقعة الغفلة، فأيما قلب أشربها أى دخلت فيه دخولا تامًا وحلت منه محل الشراب وأحبها كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أى حب العجل، والمعنى: أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصى وأحاطت به خطيئته خرج من قلبه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز إذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شىء بعد ذلك فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فنعوذ بالله من أثر فتنة الغفلة على القلوب.

قول الحق: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ [لقمان: ٢٤] المقصود: وهو متاع الدنيا، ثم بعد ذلك العذاب فى الآخرة. والغفلة تأتى جيلا بعد جيل وهى على طريقتين: إما أن تكون غفلة الإنسان نفسه، أو تخليده للغافلين من قبله.

(١) إشارة إلى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه الذى أخرجه مسلم [١٤٤/ ٢٣١] ولفظه قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً. فأى قلب أُشربها نُكت فيه نُكتة سوداء. وأى قلب أنكرها نُكت فيه نُكته بيضاء. حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا. فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مُربادا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.»